

الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين

إعلم أن النقصان يبدو من الغفلة ، والغفلة تنشأ من آفات النفس، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون، وهو ابتلاؤها لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، لتفرغوا إليه فتقولوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. وكما قال وكان الإنسان عجولاً، خلق الإنسان من عجل، ثم قال سأريكم آياتى فلا تستعجلون، وقال أتى أمر الله فلا تستعجلوه، فأخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمره بتركها للبلوى، فإن نزلت السكينة وهى مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن منفسها، وإن حُجِبَ القلب بالغفلة وهى علامة على الافتقار والتضرع تحركت النفس بطبيعتها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل، فأول البلاء اختلافها، وأول اختلافها خلافها، ومقدمته الهمة، وبابه السمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر. والقول طريق إلى الشهوة، والشهوة مفتاح الخطيئة، والخطيئة مقام من النار حتى يُزحزح عنها الجبار بالتوبة فى الدنيا والعفو فى العقبى. وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشد من النار كما حدثت عن بعضهم: قال: لأن أبتلى ببخول النار أحب إلى من أن أبتلى بمعصية. قيل ولم، قال: لأن فى المعصية خلاف ربي تعالى وسخطه، وفى النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه. قال: فسخطه أعز على وأهمظم من تعذيب نفسى. وكذلك حدثونا فى معناه عن البعض الموقنين من العمال أنه قال: ركعتان تُتقبل منى أحب إلى من دخول الجنة، قيل وكيف، قال: لأن فى الركعتين رضا ربي عز وجل ومحبتة، وفى الجنة رضائ وشهوئى، فرضا ربي عز وجل أحب إلى من محبتى. وقد قال وهيب بن الورد المكى فى ابن سئل أن يشريه فلم يفعل، لأنه سأل عن أصله فلم يستطيه، فقالت له أمه إشرب فإنى أرجو إن شربته أن يغفر الله لك، فقال ما أحب أنى شربته وأن الله غفر لى، قالت ولم، قال لا أحب أن أنال مغفرته بمعصيته.

فجملة وصف النفس معنيان الطيش والشره، فالطيش عن الجهل والشره عن الحرص، وهما فطرة النفس، فمثلها فى الطيش كمثل كرة أو جؤزة فى مكان أملس مصوب سكونها بالمنة، فإن أشرت إليها أو

حركتها أدنى حركة تحركت بوصفها وهو خفتها واستدارتها. وصورتها في الشره المتولدة من الحرص أنها على صورة الفراشة، إنها تقع في النار جاهلة شرهه، تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها. فإذا وصلت إلى شيء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه، وتطلب عين الضوء وجملمته، وهو نفس المصباح، فتحرق، ولو قنعت بقليل الضوء عن بُعد سلمت، فكذاك النفس في طيشها الذي يتولد من العجلة، وفي شرهها الذي ينتج من الحرص والطمع. والحرص والطمع هما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة، لأنه طمع في الخلود فحرص على الأكل، وكان ذلك عن الجهل والشره، فكانت معصيته سبب عمارة الدنيا، فصارت الطاعة سبب عمارة الآخرة، فلذلك قيل حب الدنيا رأس كل خطيئة، فصار الزهد أصل كل طاعة، فانظر كيف أخرج من الجنة بعد أن جعل فيها، بذنب واحد، وأنت تريد أن تدخلها ولم تملك النظر إليها بذنوب كثيرة!

وفي الحديث الآخر الإيمان عريان، فلباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم، ومن ثم قيل إن الجنة طيبة لا يسكنها إلا الطيب، فمتى طابوا لها دخلوها. ألم تسمع إلى وفاقه بين ذلك في قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم. وقال تعالى وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين، لأنه قال ومساكن طيبة في جنات عدن. والذنوب خبائث كما قال، ويحرم عليهم الخبائث، فلما طابوا لها طابت لهم، وقد أجمل ذلك بقوله تعالى الخبيثات للخبيثين، ويقول الطيبات للطيبين.

وقد مثل بعضهم النفس في شرهها بمثل ذبابٍ مرّ على رغيغ عليه غسل، فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله، وآخر مرّ به فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع إلى ورائه سالماً. وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز، لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه، ويصير القز لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه، لأن القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فيشمس، وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت لثلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحاً. فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي أهلكه أهله وماله، فتنعم ورثته بما شقى به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية لأنه أكسبهم إياها به، فلا يدرى أى الحسرتين عليه أعظم، أذابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره.

ومما سمعت في علم شره النفس ما حدثني بعض إخواني عن بعض هذه الطائفة، قال

قَدَّمَ علينا بعض الفقراء فاشترينا من جارٍ لنا جملاً مشويًا ودعوانه عليه في جماعة أصحابنا، فلما مَدَّ يده ليأكل وأخذ لقمة وجعلها في فيه لفظها ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم فإنه قد عَرَضَ لى عارضٌ منعى من الأكل، فقلنا لا نأكل إن لم تأكل معنا، فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف. قال فكرهنا أن نأكل بونه، فقلنا لو دعونا الشواء فسأناه عن أصل هذا الجمل فلعل له سبباً مكروهاً، فدعوانه فلم نسأل عنه حتى أقر أنه كان ميتة، وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصاً على ثمنه فشواه، فوافق أنكم اشتريتموه. فقال فمزقناه للكلاب. قال ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لى معنى تركت أكله ويأى عارض، فقال أخبرك ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة بالرياضة التى رضتهاها، فلما قدتمت هذا شرهت نفسى إليه شراً ما عهدت قبل ذلك، فعلمت أن فى ذلك الطعام علة فتركت أكله لأجل شره النفس إليه. فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس عن قصد واحد ثم اختلفا فى التوفيق والخذلان، فعصم العالم الودع والمحاسبة وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وتترك المراقبة، أعنى البائع للجمل، ثم عصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب، وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه لصديق المشتري وحسن نيته.

وجِبَلات النفس الأربعة هى أصول ما تفرع من هواها، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاه، وأولها الضعف وهو مقتضى فطرة التراب، ثم، البخل وهو مقتضى جبلة الطين، ثم الشهوة وموجبها الحمايم الجهل، وهو ما اقتضاه موجب الصلصال، وهذه الصفات على معانى تلك الجبيلات للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدء الأمت والاعوجاج ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة، أولها معانى صفات الريوية نحو الكبر والجبورية وحب المدح والعز والغنى، ومبتلاة بأخلاق الشياطين مثل الخدع والحيلة والحسد والطنة، ومبتلاة بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح، وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه. قيل إنها خلقت متحركة وأمرت بالسكون، وأنى لها بذلك إن لم يتداركها المالك، وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكنها محركها بالخير، فلا يكون العبد عبداً مخلصاً حتى يكون للمعانى الثلاث مخلصاً، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصاً من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الريوية، فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الإخلاص فى المعاملة عند العاملين، وبذلك رُفِعوا إلى مقامات القرب،

وذلك أنه لا يكون عندهم عبداً حتى يكون مما سوى الله عز وجل حراً، فكيف يكون عبداً رب وهو عبداً عبداً، لأن ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتب عليه فهو ربه، وهذا شرك في الإلهية عند المتألهين، ومَرَج بالربوبية عند الربانيين، فهو متعوس منكوس بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تَعَسَ عبد الدنيا، وتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الزوجة، تعس عبد الحلة. فهؤلاء عبيد العدد الذين قال مولاهم إن كل من في السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدّهم عداً، أصحاب النفوس الأمارة بالسوء المُسوِّلة الموافقة للهوى، المخالفة للمولى. وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علّمهم من لدنّه، واختارهم لنفسه. ولا يكون المريد بدلاً حتى يبدّل بمعانى صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطبايع البهائم أوصاف الروحانيين، من الإنكار والعلوم، فعندها كان بدلاً مقرباً. والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها، وتُسَخَّر له فيسلط عليها، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولا توسّع لها، فإن ملكتها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتّسعت عليك، فإن أردت الظفر بها فلا تُعَرِّضها لهواها واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فاضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواته، وإلا قويت عليك فصرعتك، فأول الملكة لها أن تحاسبها في كل ساعة، وتراقب حسبتها في كل وقت، وتقف عند كل همة من خواطرها، فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت وبادرت الفوت في إمضائها، وإن كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت في محوها لئلا تثبت، وعملت في الاستبدال بها كيلا تستبدل بك.

وفي تأويل الخبر المروي البرُّ يزيد في العمر، وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس جعل الله في عمرك البركة، وقد بورك له في عمره، فإن البركة في العمران تُدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في سنة ما لا يرتفع له في عشرين سنة.

وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برنيع الدرجات وتدارك ما فات عند أنكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات، فكل ذرة من ذكر بتسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة، وتفكر وتذكرة، بمشاهدة قرب وجدٍ يرب، ونظرة

إلى حبيب، ودنو إلى قريب ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون . مثل العارفين فيما نكرته من قيامهم بمشاهدتهم ورعايتهم لأمانتهم وعهدهم فى وقت قريهم وحضورهم مثل العامل فى ليلة والقدر، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر.

ورويانا عن على رضى الله عنه أنه قال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد. وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية قال يا إخوانى هى والله أيامكم هذه فاقطعوها بالجِد والاجتهاد، ولا تُضيّعوها فتخلّوها فراغا من حسن المعاملة. وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها، كما قال المبطلون يا حسرتنا على ما فرطنا فيها، يعنى فى الأيام الخالية التى هى محصولهم ومرجعهم ومثواهم، وكما قالت النفس الأمانة بالسوء يا حسرتنا على ما فرطت فى جنب الله، يعنى أيام الدنيا التى ضيعت العمر فيها فخّلت من الثواب والجزاء غدا. وهذا أحد الوجهين فى قوله الأيام الخالية، والوجه الآخر الخالية أى الماضية، خلت أوقاتها وخلدت أحكامها وزهبت شهواتها وبقيت عقوباتها، فإن قصرت عن هذه المحاسبة للحبيب فلا يفوتك مقام الورعين ولا تُبَن عن حال التائبين، وهو أن تجعل لك وريدين فى اليوم والليلة لمحاسبة النفس وموافقتها، مرة بعد صلاة الضحى لِمَا مضى من ليلتك وما سلف من غفلتك، فإن رأيت نعمة شكرت الله، وإن رأيت بليّة استغفرت، فإن وجدت فى حالك أوصاف المؤمنين التى وصفهم الله عز وجل ومدحهم عليها رجوت وطمعت واستبشرت، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفاً من أوصاف المنافقين أو خلقاً من أخلاق الجاهلين التى نهم الله عز وجل بها ومقتهم عليها، حزنت وأشفتت وتبّت من ذلك واستغفرت. والمرة الثانية أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم لِمَا مضى من يومك من طول غفلتك وسوء معاملتك وما فعلته من أعمالك، كيف فعلتها ولمن فعلتها، وما تركته من سكوتك وصمتك، لِمَ تركته ولمن تركته، فتنعقد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلف والإخلاص من حركتك وسكونك، فما تحركت فيه وسكنت لأجل الله عز وجل به فهو الإخلاص، ثوابك فيه على الله عز وجل عند مرجعك إليه، فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة من التهلكة، وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك فهو التكلف الذى أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه هو والاحتياء من أمة برآء من التكلف، وقد

استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب، فاعمل حينئذ في الاستغفار بعد حسن التوبة وجميل الاعتذار، وخِفْ أَنْ يَكُونَ قَدَ وَكَلِكْ إِلَى نَفْسِكَ فَتَهْلِكْ، فعمل مشاهدة هذين المعنيين من خوف ما سلف منك والطمع في قبول ما أسلفت يمنعك من المنام ويطرده عن الغفلة، فتحیی ليلتك بالقيام فتكون ممن وصف الله عز وجل في قوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعا وقد قال بعض السلف كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه. وقد قال بعض العلماء من علامة المقت أن يكون العبد ذاكراً لعيوب غيره، ناسياً لعيوب نفسه، ماقتاً للناس على الظن، محباً لنفسه على اليقين.

وترك محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل. والغافلون في الدنيا هم الخاسرون في العقبى، لأن العاقبة للمتقين. قال الله عز وجل، وأولئك هم الغافلون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون. وطول الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود، والغفلة في الظاهر غلاف القلب في الباطن. وتقول العرب غَفَلَهُ وَغَفَّهُ بمعنى، كما تقول جذب وجبذ، وخشاف وخفاش.

وطبائع القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض، وهو الران الذي يتعقب الكسب فيكون عقوبة له. قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، قيل المكاسب الخبيثة وأكل الحرام. وفي التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. وأصل الرين الميل والغلبة وهو التغطية أيضاً، يقال ران عليه النعاس إذا غلبه، ورائت الخمر على عقله أى غطته. ومن هذا قول عمر رضى الله عنه في سابق الحاج فادأن معرضاً فأصبح وقد رين به أى مال به الدين فغلبه.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة وإهمال المحاسبة وتأخير التوبة والتسويق بالاستقامة وترك الاستغفار والندم. وأصل ذلك كله هو هب الدنيا وإيثارها على أمر الله عز وجل وغلبة الهوى على القلب. ألم تسمع إلى قوله عز وجل ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، إلى قوله عز وجل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم. وقال في دليل الخطاب ونهى النفس عن الهوى، يعنى عن إثارة الدنيا، لأن صريح الكلام وقع في وصفهم بالطغيان وإيثارة الحياة الدنيا، ثم قال طبع الله على قلوبهم وأتبعوا أهواءهم، فاتباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب. أمأسمعته يقول لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

وقد جعل على رضى الله عنه الغفلة مقاما من مقامات الكفر فقال فى حديثه الطويل، فقام إليه سلمان، فقال أخبرنا عن الكفر على ما بينى، فقال على أربع مقامات ، على الشك والجفاء والغفلة والعمى، فإذا كثرت غفلة القلب قل إلهام الملك للعبد وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يصمه عن السمع، وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا، وتثبيت الملك للعبد على الخير والطاعة وحى من الله عز وجل إليهم وتفضيل للعبد. أما سمعت قول الله عز وجل إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا.

وفى الخبر أن آدم عليه السلام حُجِبَ عن سمع كلام الملائكة فاستوحش بذلك، فقال يارب مالى لا أسمع كلام الملائكة، فقال خطيبتك يا آدم. فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم، إنما يستجيب الذين يسمعون. وقال الحسن إن بين العبد وبين الله عز وجل حداً محدوداً من الذنوب، فإذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه للخير أبداً. فبادر أيها المجاوز للحدود بالتوبة والرجوع قبل أن تبلغ الحد فتلقى عيأً وجهداً. وفى حديث ابن عمر الطابع معلق بقائم عرش الرحمن فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب فأعماهما. وهذا فى القفل الذى قال الله عز وجل أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

واعلم أن القسوة التى يهدد الله عز وجل عليها بالويل، المتولدة من طول الغفلة، فى قوله عز وجل فويل للقاسية قلوبهم من نكر الله، وقد قرنها الله عز وجل بالنفاق، وأخبر أنه يجعل إلقاء الشيطان فتنة لأهل النفاق والقسوة، فالقاء الشيطان يكثر عند قلة إلهام الملك كما ذكرنا أنفاً، ينتظم ذلك قوله عز وجل ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقساية قلوبهم، أى والقساية قلوبهم أيضاً. والقسوة ثمرة البعد، والبعد عقوبة الخيانة، والله لا يحب الخائنين، فذلك من تدبر الخطاب من قوله فيما نقضهم ميثاقهم، أى فبنقضهم الميثاق، وما صلة فى الكلام، فهذا هو الخيانة، لعناهم أى أبعدها، وجعلنا قلوبهم قاسية بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبهتان، فأصيبوا بالذنوب، فوقع الطابع على القلوب، فصمت عن سمع كلام المحبوب، كما قال أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم، فجلاء هذا الطابع التقوى فهو مفتاح السمع، كما قال اتقوا الله واسمعوا، والله تعالى الموفق.